مجلة أبوليوس
المجلد 07 العدد 02 -جوان 2020
الصفحات: 153- 165

آليات تأويل النص الأدبي

Mechanisms for interpreting the literary text

د. عبد الحكيم سحالية*
جامعة الشاذلي بن جديد ،الطارف – الجزائر
hakimsahalia@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/06/07 تاريخ القبول: 2020/06/20 تاريخ النشر: 2020/06/25

ملخص البحث:

النص كيان لغوي ودلالي تتفاعل فيه المعاني والدلالات، فحاولت معظم المناهج والمقاربات الوصول إلى كنهه وحقيقته، فبحثت مفهوم النص وعلاقته بالسياق والكاتب، وجاءت مجموعة من القراءات تتوسل النظريات والمقولات المعاصرة لتأوليه، فكانت البنوية، الأسلوبية، السيميائية، اللسانية النصية، والتداولية، وصولا إلى اللسانيات المعرفية، من هذا المنطلق يهدف المقال إلى الولوج إلى عوالم النص، وحدوده وماهيته، وعلاقته بالمحيط والمنتج، وتفاعله مع جملة من المناهج والمقاربات المعاصرة التي تتوخى العلمية والموضوعية، فالنص الأدبي نص تواصلي بامتياز.

يصبو المقال إلى الوصول إلى النتائج الآتية: الوقوف على مفهوم النص في الدراسات المعاصرة، ومقارنتها بالتعريفات القديمة، وكيف يمكن أن يقرأ ويحقق نصانيته وخلوده، وإبراز المناهج التي يمكن أن تتناوله بالدراسة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: آليات؛ تأويل؛ النص؛ الأدبي.

Abstract:

The text is a linguistic and semantic entity in which meanings and semantics interact. Most of the approaches and approaches attempted to reach its meaning and reality, examined the concept of the text and its relationship to the context and the writer, and a group of readings begged contemporary theories and sayings to interpret it. In this sense, the article aims to gain access to the worlds of the text, its borders and its essence, its relationship to the environment and the product, and its interaction with a number of contemporary approaches and approaches that seek scientific and objective, communicative text par excellence. This article aims to reach the following results: stand on the concept of the text in contemporary studies, compare it with the old definitions, how it can read and achieve its textuality and immortality, and highlight the approaches that can be dealt with by study and analysis.

Keywords: mechanisms; interpretation; text; literary.

* المؤلف المراسل

مقدمة:

النص الخالد هو النص الذي يقرأ في كل زمان ومكان، هو النص الذي ينفتح داله على مدلوله، وتتسع مساحتهما لخلق بؤرة توتر تصدم أفق انتظار الملتقي، وتحمل كثافة تعبيرية، وحمولة دلالية، تجعل من القارئ يستمتع، وتحدث داخله لذة وتجعله يتتبعه في كل حين بلهفة وحنين طارحا أسئلة قد لا تجد إجابات شافية تطفئ ظمأه الأدبي وعليه يمكن أن نضع الإشكالية الآتية: ما هو النص ، وما هي المداخل الممكنة التِّي تساعد على تفكيك شبكة العلامات داخله، وفهم شفراته، وأين يكمن النص هل في الكلمات أو في الكاتب، أم في مسافة وسطى بين المنتج والمتلقي،وقد تناولنا في هذه المداخلة مجموعة من العناصر للإجابة على هذه الإشكالية، بداية بالوقوف على مفهوم النص، وإبراز الثالوث المتحكم في العملية الإبداعية،والحديث عن أنماط القراء، وصولا إلى إبراز الفعل الكلامي ودوره في فك شفرات النص، وأثر المقاربة التداولية في تأويله.

1. حدود النص ومفاهيمه :

إن النص كيان لغوي ودلالي تتفاعل فيه المعاني والدلالات من أجل تحقيق الهدف والوصول إلى الحقيقة من خلال بناه المنسجمة والمتسقة، والقراءة فعل معقد، فيقال في اللغة : قرأت أي صرت قارئا، ناسكا، وقرأ = تفقه فقرأت فتفقهت[1] والقارئ خبير، ومنتج لمعاني النص وخباياه، ومفكك لطقوسه الجمالية والاجتماعية .

حاولت معظم المناهج ما بعد البنيوية إيجاد تفسير منطقي لمفهوم القراءة على أساس تصور خاص يتكون من المؤلف، النص، القارئ، لكن ينتقل محور الاهتمام من عملية قراءة إلى أخرى، حسب كل منهج وتيار ولعل القارئ قد أعلن ميلاده وشخصيته وقدرته الإنتاجية وفاعليته الحقيقية عند مقولة موت المؤلف وعندما صرح رولان بارث مقولة "أنا أقرأ النص" "je lis le texte"[2] فهو بذلك أعلن عن حرية عملية القراءة، فهو يؤمن بتعلم كيفيات قراءة النص الأدبي، والأهم أن تكون قراءة منطلقة من لدن خيال وفكر القارئ، وحبه لممارسة فعل القراءة، والغوص في أعماقها ولغة نصها، لاستخراج جواهر الكلم، ولؤلؤ البيان، وبهاء اللغة وجلاء العبارة وجمالها، فالقارئ هو الذي يخلق النص ويعيد بناءه وتشكيله في حدود ما يسمح به النص، وما يكون معقولا لديه في سبيل تحقيق لذاته، ومتعته الأدبية، والنقدية، وبطريقة يكون فيها قادرا على تشكيل سياقات ومسارات مؤتلفة ومختلفة باحثا في كل ذلك عن المدلولات يتعقب الدال، وكشف قناعه، فيعيد بذلك انتاج المعنى وخلق معان جديدة متقاربة من معنى النص الأول وتتداخل التأويلات وترفع النص إلى أعلى درجات الخلود الأدبي، حيث يقول أدونيس "هذا القارئ لا يقرأ النص من حيث هو نص قائم بذاته في استقلال عن النص نص يشكل له لغته، وعلاقتها، وأبعادها، إنه بالأحرى لا يقرأه، إنما ينفي فيه ما يؤكد أو ينفي ما يضمره في عقله، ونفسه، ينتظر من النص أن يكون عونا له"[3] فالقراءة تعطي معنى لهذا النص وتخرجه من الوجود القهري إلى الوجود الفعلي، فالتغيرات الجذرية في مجال دراسة الأدب والنص الأدبي طرحت قضية دور القارئ ونمط قراءته، فالقراءة ظاهرة إبداعية يتحقق من خلالها مفهوم النص، ولاقت في السنوات الأخيرة، اهتماما بالغا وأصبحت مجالا له علاقة وطيدة بإنتاج النص، وتعدد معانيه، وأصبح القارئ بذلك مبدعا ثان لنصوص الأول دون أن

يسعى أي منهما لإلغاء الآخر، بل الواحد يكمل الثاني [4] فالنص أرض يزرع فيها القارئ أفكاره، الذي يعمل على إعادة فهمه في سياقات غير معلنة نتيجة اكتشاف لمدلولات ومواقف إضافية أو أصلية مسكوت عنها، فالنص المهمل لا قيمة له، وبتنوع القراءة تتنوع الدلالات، وبذلك يصبح النص حيا يرزق، ويوضع القارئ بصماته على النص فينفتح وتعرف بنياته الداخلية والخارجية، وبنية التواصل، والتفاعل فيما بينهما القراءة العارفة للنص الأدبي هي قراءة فاعلة ومنتجة مثقلة كاهل صاحبها بالهموم والمأساة والمعانات لأنها رحلة بحث عن المستحيل، تنتقل بثبات من الأنا الكاتبة إلى القارئة والنافذة التِّي تملك الآليات المساعدة على فك الرموز والشفرات لأن النص حقل ملغوم، ومتداخل فالنص الذي يبين عن كل مكنوناته لا يستدعي قراءة ولا يبحث القارئ عنه لأنه واضح، يشعرك بالملل أما النص الموحي فهو نص يدعوك لأن تقرأه فالنص بذلك ليس سلسلة من التعابير النهائية إنما هو نص الفضاءات البيضاء والفجوات التِّي يجب على القارئ ملؤها[5] فالقراءة إذن ليست فعلا بسيطا بل هي من أشد المظاهر تعقيدا حيث يوظف فيها القارئ معرفته العميقة بالنص والتِّي نتجت من قراءة سابقة للنص ذاته[6] فهي عملية هدم وإعادة بناء، تكسير وإعادة تشكيل، فالنص بهذا المفهوم، لا يتأسس ولا يبيح بأسراره لقارئه إلا من خلال عملية حوارية تستهدف بناء معان عبر قراءة فعالة واعية عميقة .

ومنه، فإن ليس لكل قارئ مفاتيح تفتح عوالم النص فيدخل إنما للقارئ الواعي المفاتيح الخاصة التِّي تفتح عوالم النص فيدخل وإنما القارئ للواعي المفاتيح الخاصة التِّي تفتح له عوالم النص فينتجه وبصعوبة.

وعليه فإن لكل قراءة طريقة للولوج إلى دواخل النص، ولكل قارئ استراتيجياته الخاصة وفاعليته الخاصة التِّي تسمح له باختراق النص والتجوال عبر مساحاته وفضاءاته المختلفة، فالكاتب منتج والقارئ يعيد تشكيل هذا الإنتاج، فأنا أكتب بخلاف ما أتحدث وأتحدث بخلاف ما أفكر، وأفكر بخلاف ما كان ينبغي لي أن أفكر، وهكذا إلى أعمق الأعماق[7] بحسب تعبر كافكا (kafka)، فالنص الأدبي نص منفرد له خصوصيته وبصماته، تتضح هذه البصمات في أنساقه الجزئية والحركية لأنه ليس مجرد تتابع لعدد من الجمل بل هو كل متكامل متعارض، متضامن، الوحدة اللغوية، تنفد إلى الوحدة الدلالية ثم إلى العودة التأويلية إذن "فهو نظام ومنطق فيه يوحد بين العناصر المكونة له" [8] . يتفاعل مع كل هذه الأجزاء والتمفصلات، القارئ المتمرس، فيفك شفرات الدوال، فما عاد النص بذلك عملا بسيطا أو تلقائيا بل هو نسيج لغوي متجانس ومتشابك يحمل في طياته، جوانب فكرية، وجمالية .

مرت قراءة النصوص الأدبية بتعدد مستوياتها بمراحل عدة، مختلفة ومتباينة وباتجاهات شتى تعود إلى اختلاف المنابع والتِّيارات، مما أدى إلى تعدد القراءات وإجراءاتها، وتعود كذلك إلى الثالوث الأساس في العملية الإبداعية وهو الكاتب، النص، القارئ .

1.1.الكاتب: هو منتج النص، وقامت حوله مجموعة من المدارس، التِّي تقرأ الأدب من خلال الخارج نصية كالقراءة السوسيولوجية، السيكولوجية، وقراءة السيرة الذاتية والتاريخية، وتقوم على مبدأ أننا لن نفهم العمل الأدبي إلا من خلال فهم الكاتب ومحيطه، وطريقة والبحث عن العوامل التِّي أفرزت إنتاج النص .

2.1.النص: رفض أصحاب هذا النهج الاهتمام بالأمور الخارج نصية، وحاولت البحث في بنيات النص ودواخله ونادت بمبدأ حياة النص، ولا شيء غير النص، وقالت بموت المؤلف اعتمادا على اللغة وانغلاق النص فيها، وانطلاقا من مقولة دوسوسير "الانطلاق من اللغة ووصولا إلى اللغة "[9] ونشأت بذلك القراءات البنيوية وكان المهم عندهم هو الإنتاج لا المنتج .

3.1.القارئ: بعدما ألغت القراءات النصية دور الكاتب والمحيط، والقارئ بالخصوص، أفرغت النص والناقد من مهمته، فنتج عن ذلك ثورة اهتمت بالقارئ الذي هو المرسل إليه وصاحب الكلمة الأخيرة، وهو الذي يحدد المعنى، ويشكله ويبنيه ولا معنى إلا في نطاق عملية التلقي، ومنه قامت مدارس الاستقبال، ونظريات التلقي، وحدث أن تطورت نظريات القراءة والتأويل.

يمكن إذن قراءة نص واحد وفق مجموعة من آليات القراءة، ومنه علينا أن نتساءل عن هوية النص الذي خلق كل هذا الكم من التباين والصراع، فماهو النص، وما هي الإجراءات لقراءته.

2. مفهوم النص:

1.2. لغة: أورد الفيروز آبادي في مادة (نصص) قوله "نص الحديث رفعه، وناقته، استخرج أقصى ما عندها من السير، والشيء حركة، ومنه فلان ينص أنفه غضبا وهو نصاص الأنف، والمتاع : جعل بعضه فوق بعض، وفلانا استقصى مسألة

عن الشيء، والعروس أقعدها على المنصة هي ما ترفع عليه فانتصت، والشيء، أظهره، والشواء ينص نصيصا، صوت على النار، والقدر غلت والمنصة بالفتح الجملة من نص المتاع، والنص الإسناد إلى الرئيس الأكبر ونصيص القوم عددهم والنصة العصفورة ونصص غريمه، وناصه استقصى عليه وناقشه[10] ونصنصه حركه، وفي مختار الصحاح مادة (ن.ص.ص) جاء في حديث علي رضي الله عنه إذا بلغ النساء نص الحقاق، يعني منتهى البلوغ، بلوغ

العقل، ونصنص الشيء حركه كما في حديث أبي بكر رضي الله عنه حين دخل عليه عمر رضي الله عنه وهو ينصنص لسانه أي يحركه ويقول : هذا أورد في الموارد.[11]

وأما في لسان العرب فالنص رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا: رفعه وكل ما أظهر فقد نص، ووضع على المنصة، أي على المنصة أي على غاية الفضيحة أو الشهرة والظهور والنص أصله منتهي الأشياء، مبلغ أقصاها، ومنه قيل نصصت الرجل إذا استقصيت مسألته عن الشيء حين تستخرج كل ما عنده، وفي حديث هرقل : ينصهم أي يستخرجوا رأيهم، ويظهره، ومنه قول الفقهاء : نص القرآن، ونص السنة أي ما حل ظاهر لفظها عليه من الأحكام، وانتص الشيء وانتصب إذا استوي واستقام[12]، فدلت كل ألفاظ "نص" في أغلب المعاجم العربية على الظهور والبيان والارتفاع والاكتمال، ولم تخرج المعاجم الغربية عن هذه المدلولات فنجد لفظة (text) أو (texte)، ترتبط بأدوات النسيج أو الكتاب والمخطوط، والبنية التّي تشكلها الكلمات .

وكذلك القطعة القصيرة من الإنجيل يستشهد بها المصدر الموثوق به التام بالنص ولم يقتصر الأمر بالمشية لتعريف النص على ما ورد في المعاجم القديمة، فقد تطور الأمر، وأصبحت المعاجم الحديثة تدلي بدلوها، وتميل إلى تعريفه بشكل أشمل وأكثر إجرائية كما جاء في معجم

المصطلحات اللغوية للدكتور خليل أحمد خليل الذي يعرفه بأنه "يعني في العربية الرفع البالغ ومنه منصة العروس، وهو الكلام المفهوم المعنى، النص هو النسيج، المدونة والمخطوطة أو المطبوعة وسياق النص ما ساقه"[13].

ومما سبق يمكن أن نلمح أن النص برغم تعريفاته اللغوية المتعددة إلا انه مازال زئبقي الدلالة، غير مستقر في الفهم، ولن يكتمل إلا بوجود الاصطلاح والدقة العلمية، وعلى الرغم من جرأة التعاريف اللغوية وتميزها إلا إن محاولة تحميل التعريفات المعجمية دلالات قسرية قد تؤدي إلى انحراف معرفي واضطراب مصطلحي لن يفيد الدراسة الجادة.

2.2.النص اصطلاحا:

إن قضية النص ومفهومه الاصطلاحي الدقيق شغلت حيزا كبيرا من البحث، بصعوبته وزئبقيته، ونظرا لتعدد معايير التعريف، ومضامينه وخلفياته المعرفية في اللسانيات خاصة، فقد تناوله الدارسون من حيث وجوده الفيزيائي ومن حيث هو عمل منجز في الزمان والمكان ومن حيث هو مؤسسة اجتماعية حضارية تؤدي دور العلامة الدالة بما تتسم به من سمات النشاط اللغوي الفردي والجماعي فيختلف مفهوم النص من أمة لأخرى ومن ثقافة لأخرى لذلك فرق ميشال فوكو بين ما هو نص ولا نص بقوله إذا كان الكلام لا يحصى فإن النصوص نادرة فالنص حسبه له معاييره الخاصة وأسسه، ونمطه وشكله الذي يختلف تماما عن الكلام، فليس كل كلام نص، بل النص له محددات معينة، فهو إذن يمتلك هوية، وهو جهاز ينظمه تماسك لغوي خاص[14].

مفهوم النص ما يزال غير مستقر، فهذا رولان بارث يعيب ويرفض بشدة، تعريف تودوروف للنص حينما مزجه بالبلاغة، وينتهي إلى حصيلة بعد جولة طويلة ورحلة من البحث بقوله "نفهم الآن أن نظرية النص موضوعة في غير مكانها المناسب في المجال الحالي لنظرية المعرفة[15]"، كما توصل تودوروف من جهته إلى الإقرار بأن التعريف الوظيفي للأدب لا يمكن حصره، وعليه فإن جل التعريفات قاصرة إذا اتصلت بالبناء النصي[16]، فالنص يمد جسور التلاحم، إنه تواصلي يعيد عن طريق ربط الكلام الانسجام والتوافق، فوضع النص إزاء الكلام وعلاقته باللسان تعتبر علاقة إعادة توزيع (هدم/ بناء) فيكون الكلام ملكا لكل متعلم، ويتشكل النص وفق القواعد اللغوية (التركيب،النحو، الصرف، الصوت....) وتتحكم فيها القدرة لدى المرسل والمتلقي على حد سواء، والشيء المميز للنص الأدبي اختلافه عن بقية الخطابات، أو الكلام، أو النصوص المباشرة، وإبراز أدبيته عنهم، وربما هذا ما نحاه الشكلانيون الروس حين قابلوا بين اللغة الشعرية واللغة العادية، ولعل توماشيفسكي ورينيه ويلك وأوستن وارين في نظرية الأدب أسسوا لهذا المفهوم وقالوا ب:"النص الصرح"[17] أي النص المميز الذي يحتوي جملة من الخصائص التّي تجعله يختلف عن بقية النصوص، فالظاهرة الأدبية لم يقتصر البحث فيها على الجانب التركيبي اللغوي فحسب بل تتعدى ذلك إلى دراسة شمولية الأدب التّي تصنع النص، في إطار عام، ولا تفصل بين المطبوع والشفوي[18] وبذلك ألغى البحث التقسيمات التقليدية خاصة البلاغية منها، وجعل محلها خصوصية النظام المهيمن وجعل بعضهم النص وحدة إيديولوجية وهي التقاء النظام النصي بالأقوال والمتتاليات التّي يحتويها في فضائه والتّي يحيل عليها[19] وعليه فيجب أن ننظر إلى النص من حيث خصوصية الإنتاجية لا كمنتج، فالنص إذن ليس مظهرا إنسانيا فحسب لأنه يتجاوز

اللسانيات إلى مستوى الدلالة، وفك الشفرات والرموز والعلامات وينطلق حتى يصل حدود التأويل والقراءات المتعددة إنه مظهر قابل للانفتاح "فتحولت قضية النص الأدبي إلى قضية كبرى، لا تنحبس في وصف الظواهر الأسلوبية، ولا تقتصر على استخراج الثنائيات وضبط الوحدات والوظائف الفرعية، بل تحولت إلى مشغل البحث في بنية النص من موضوع تشكله إلى البحث في ماهيته، دون التخلي عن حضوره المادي المحسوس"[20]، النص حسب رولان بارث لا يتمتع بوجود منهجي إلا بإنتاج متقاطع يخترق عملا أو عدة أعمال أدبية، وهو قوة متحولة تتجاوز جميع الأجناس والمراتب المتعارف عليها، إنه يمارس التأجيل الدائم واختلاف الدلالة، ويحيل إلى مجموعة من الأفكار والمدلولات وهو مفتوح، ينتجه القارئ في عملية متشاركة وبتواطؤ، لا مجرد الاستهلاك، لتحقيق اللذة والمتعة، وتحقيق الخلود النصي، فهو إذن "ليس موضوعا، ولكنه عمل واستخدام، وليس مجموعة من الإشارات المعلقة المحملة بمعنى يجب العثور عليها لكنه حجم من الإشارات التِّي لا تكف عن الانتقال فالنص ينظر إليه من حيث الاكتمال لا من حيث الطول أو الحجم، وهو علامة كبيرة ذات وجهين، وجه الدال، ووجه المدلول، ويتوفر في اصطلاح النص معنى النسيج، نسيج الكلمات التِّي تجمع عناصره المختلفة"[21] ويرى لوتمان أن الوقوف على دلالة النص الأدبي غير دون الاستناد إلى التكامل اللغوي والثقافي والأسلوبي[22] .

النص تتعامد فيه كل الجوانب اللغوية، الفنية والثقافية والاجتماعية لتكوينه وبروزه، فقد يكون كلمة دالة،ولا يشترط فيه الكم بقدر ما يشترط فيه التكامل،والنص عند الدكتور عبد المالك مرتاض" شبكة من المعطيات اللسانية والبنيوية والإيديولوجية تتضافر فيما بينها لتكون خطابا فإذا استوى مارس تأثيرا عجيبا" [23]، إنه قائم على التجدد بحكم مقروئيته، فكلما قرأ كلما زاد حياة، وكلما قرأ كلما حاول الغير فهمه أكثر، فهو لا يبوح بكل ما في جعبته بل كل قراءة تجعله يخرج جزءا مما فيه كالبحر ويرى الدكتور عبد السلام .المسدي أن جوهر الخطاب الأدبي يكمن في وجوده الذي يحمل خصائصه الابلاغية فهو يتولد ولا ينقضي إنه خالد الوجود فهو يتكشف ليخترق حجاب الزمن[24] فالنص إذن بنية أدائية إضافة إلى البنية التركيبية، يتحقق وجوده بتعدد القراءات والشحنة التعبيرية التِّي بداخله والكم الهائل من الإيحاءات والإيماءات التِّي يبثها فالنص تركيب وأداء وتقبل وهو ملفوظ وتلفظ واستقبال. [25] فهو عملية تحاور للمعنى وتحطمه وإعادة تكثيفه وبنائه، وهو نمط دال يحتل مكانة في التاريخ، وفي الذهن، وفي مدى قراءته، وحدده بحدود القراءة كلما قرء كلما ولد، وللنص شأن عند مباشرته للمرة الأولى، وشأن عند معاودة مباشرته لمرات عديدة وعليه فالنص الأدبي هو فعل وظاهرة لغوية متعددة المعاني، إيحائية تتجاوز أحادية الدلالة[26] فهو لا يقبل التوحد والمباشرة وإنما يحبذ التعدد والتوالد والتجدد وبما تعارف عليه في التداولية النصية، فالنص ما هو إلا سلسلة لسانية محكية أو مكتوبة تشكل وحدة تواصلية[27] فهدف النص الأول هو التواصل والبنى النصية وإن كانت قد أنجزتها كينونات لسانية، إلا أنها تكون كينونات تواصلية[28]، إنه وحدة وظيفية تنتمي إلى نواميس وقواعد تواصلية.

3. تفاعل النص والقارئ:

النص الأدبي بنية تفاعلية بين المرسل والمتلقي، والقراءة إستراتيجية تحتم على القارئ أن

يمتلك ترسانة من الأدوات والمرجعيات لتأويل هذا النص، لأنه يمثل «سلسلة من الحيل التعبيرية التي ينبغي أن يفعلها المرسل إليه»[29]، فهي عملية معقدة تقوم على مجموعة من الآليات الثقافية والنفسية والاجتماعية والجمالية، ففعل القراءة شرط مسبق ضروري لجميع عمليات التأويل الأدبي لتحرير النص، فك أسره، وإعطاء مساحة أوسع للقارئ «فالشيء الأساسي في قراءة كل عمل أدبي هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه»[30]، ويعد القارئ حلقة مهمة ورئيسة في نظرية القراءة، لأن تحديد المعنى والوصول إليه في النص الأدبي يرتكز على هذا القارئ ما يفيد «أن للعمل الأدبي قطبين قد نسميهما القطب الفني والقطب الجمالي، الأول هو نص المؤلف والثاني هو التحقق الذي ينجزه القارئ»[31]، وعليه فالقراءة هي التي تبرز النص وتجعله يكتسي أهمية ومكانة وهي فعل ونشاط حيوي ومكثف، يقوم بملء الفراغات، والتنسيق بين أجزاء النص «وبذلك يتم إنتاج الموضوع الجمالي»[32]، فلم يعد من خلال هذه النظرة القارئ طرفا مستهلكا، وإنما أصبح عنصرا فاعلا وفعالا في عملية إنتاج المعنى، و «بدون القارئ لا يمكن أن تكون هناك نصوص أدبية»[33]، فهو الذي يوقع شهادة ميلاده، لأن النص الأدبي لا يكتمل إلا بمساعدة القارئ.

فانفتاحه وانغلاقه مرتبط بقدرات المتلقي، «فالقارئ وهو يقرأ يخترع ويخترق ويتجاوز ذاته مثلما يتجاوز المكتوب أمامه»[34]، فالنص يريد أن يترك للقارئ المبادرة التأويلية[35]، وهذا هو سر خلود الأعمال الأدبية، تقرأ في كل زمان، وتؤول من عدة قراء لأن المعنى يحدد من طرف القارئ فهو «لا يصوغ ذاته أبدا بل إن على القارئ أن يحضر في المادة النصية لكي ينتج المعنى»[36].

يلعب إذا القارئ دورا مهما يجعله شريكا في توليد الدلالة وإنتاج النص، وممارسة فعل الفهم عن طريق التأويل الأدبي.

1.3. أنماط القراء: عرف النقد الأدبي ظاهرة التحليل استنادا إلى عملية تصنيف القراء، فتعددت نماذج كثيرة، لأن القراءة في حد ذاتها عمل إبداعي يعادل إبداع النص الأدبي، فحظي القارئ باهتمام كبير لفضله في إحياء النص وانتشاره، وللقارئ عدة أوجه وهي:

- **القارئ المخبر:** وهو الشخص الذي يمتلك ناصية اللغة ويتحكم فيها، ويعرف خباياها، ودلالاتها وتكون له «كفاءة أدبية»[37]. ويستطيع أن يراقب ردود أفعاله خلال عملية القراءة لتوليد دلالة النص الأدبي«إذا كان القارئ نفسه يبين النص بواسطة كفاءته، فإن هذا يتضمن أن ردود أفعاله ستتابع في الوقت المناسب خلال قراءته، وأنه في متتالية ردود أفعاله هذه سيتولد معنى النص»[38]، فينتقل القارئ المخبر من البنية السطحية للنص إلى البنية العميقة للوصول إلى معناه، «إنه ينتقل من مستوى القشرة الخارجية أو الغطاء أو الحجاب، أي طبقة الأشياء الزائدة التي يجب إزالتها أو اختراقها أو إزاحتها لفائدة البذرة التي توجد تحتها»[39].

القارئ المخبر هو الذي يتجاوب مع النص، يقوم بكل ما في وسعه للوصول إلى كنهه، وإلى درجة الفهم «إنه مجموعة مختبرين موظفين مستعملين لأجل التعرف مع سلسلة أسلوبية تحتويها تراكيب النص فهو مجموع القراءات أي الاستجابات »[40]. فالقارئ المخبر هو الذي يتأثر بما في النص ويحدث داخل نفسه دهشته،فتكون استجابة

- **القارئ الأعلى**: إنه قارئ استكشافي يبحث في نسيج النص، وفي الرسالة المكثفة، حيث يرصد الأحداث الأسلوبية التي تشد الانتباه فيتوقف عند اللامنتظر، وعند الخارج عن المعيار والذي يكسر النمطية اللغوية، فالقارئ المتمكن وهو الذي يستطيع مسك مواطن الجمال في النص ركز ريفاتير على الظواهر الأسلوبية، والتراكيب التي تحقق الخرق والعدول عن القاعدة.
- **القارئ النموذجي**: وهو القارئ الذي فك شفرة ورموز النص الأدبي من خلال

القراءة الأسلوبية التي تتطلب التمرس وإدراك نظام اللغة، وكذا استعمل هذا المصطلح المفكر الإيطالي أمبرتو إيكو؛ واعتبره يمتلك موسوعة قرائية تخوله تفكي بنيات النص، ويصعب إيجاد هذا القارئ لأنه في حد ذاته نموذج واعتمد إيكو في تأسيسه لمفهوم القارئ النموذجي على النظرية التواصلية؛ لأن التواصل اللساني ونظامه وحده ليس كافيا لفهم الرسالة و «أن الأرموزة اللسانية لا تكون كافية، وحدها لكي يفقه المرء رسالة لسانية»[41]. فالتعزيزات غير اللسانية تسهم في إيصال المعاني وجعل العملية التواصلية أكثر سلاسة.

افترض أمبرتو إيكو للنص السردي المكتوب قارئا نموذجيا لقناعته بأن النص لا يكمله إلا القارئ الذي يملك ثروة لغوية، ومعارف نحوية وتركيبة، ووظائف الكلمات داخل السياق، ويطلق إيكو على هذه المعارف اسم «الكفاية الموسوعية»[42]؛ وهي جملة المعارف المتضمنة الكفاءة الأسلوبية والمرجعيات الثقافية، والكفاءة اللسانية.

وعليه يمكن القول إن القارئ النموذجي ما هو إلا مجموعة من العوامل تتضافر لإتمام وإنجاح العملية القرائية، وهي هياكل نصية تتيح للقارئ تحيينه وإزالة لبسه، فيقوم بنشاط سيميولوجي معقد، ومتشعب باستخدام كل كفاءاته اللسانية وغير اللسانية، فيميط اللثام عن مكنونات النص البارزة، والباطنة، وقد ميز إيكو بين النص المغلق والمفتوح واعتمد على فاعلية القارئ وتداولية النص.

- **القارئ الضمني**: اهتم أيزر بالأثر الذي يتركه معنى النص على القارئ واعتبر الأثر هو معيار الجمالية لأن النص يستدعي استجابة، ومنه علينا أن نقتنع بوجود القارئ الضمني الذي يحمل مفهوما «وله جذور متأصلة في بنية النص إنه تركيب لا يمكن بتاتا مطابقته مع أي قارئ حقيقي»[43]؛ إنه قارئ يتغلغل في البنية النصية التي تحمل وجهة نظر، يستطيع من خلالها تجميع المعنى التخييلي الذي يختلف عن وجهة النظر الواقعية، «نقول بأن مفهوم القارئ الضمني هو نموذج متعال يجعل من الممكن وصف التأثيرات المبنينة للنصوص الأدبية»[44]. وعد أيزر المتلقي/ القارئ عنصرا بالغ الأهمية، واعتبره طرفا ملتصقا بالنص الأدبي، يتبادل معه علاقة التأثر والتأثير، إنه يقع داخل النص نفسه ويرى إيزر أن المتلقي يحول النص في وعيه إلى تجربة شخصية خاصة به فيوفق بين وجهات النظر المتعددة في النص، ويختار طرائق مختلفة لملء الفراغات الكامنة، إن القراءة من هذا المنظور تجعلنا نقوم بصياغة ما ليس متشكلا، ليتحول القارئ عندها إلى مبدع، وجعل أيزر قارئه مشاركا

في العملية الإبداعية شرط أن يبقى مرتبطا بالنص، لأن ملء الفراغات يكون وفق ما يناسب نسيج النص الذي أسسه الكاتب.

4. القراءة وفعل الكلام:

لا يخلو أي عمل أدبي من مرجعيات تؤسسه، كالمرجعية التاريخية والثقافية والنفسية التي «تؤمن للفعل اللساني تحققه»[45]، ولا يخلو من السياق الذي يقود القارئ إلى فك شفرة الرسالة الأدبية لأن «العلامة الأدبية تدمج سلسلة من التعليمات التي ينبغي أن تساعد في إنتاج المضامين»[46]، من هنا يكون النص الأدبي نسيجا يحمل في طياته مخزونا فيفكك القارئ ما في النص من مخزون ومن «تواضعات مشتركة»[47]، تواطؤ كل من المرسل والمتلقي القارئ، عليها للوصول إلى إنجازية هذا العمل الأدبي، فيثر النص في المتلقي ويتأثر القارئ بالنص الأدبي، وهذا ما يسمى في التداولية الأدبية «بإستراتيجية الخطاب»[48]، والتي تقوم على تخطيط ينجز ومقاصد تتوخى.

وعليه فالخطاب الأدبي خطاب تواصل يحمل شحنة تأثير في القارئ، يحمل آليات وطرائق للتفاعل، لأن المؤلف للنص الإبداعي ليسعى بكل قوته إلى انتقاء واختيار الشكل الأنسب والأكثر تأثيرا في متلقيه فيستعمل فعل خطابيا من أفعال الكلام بصورة غير مباشرة، أي بصورة تلميحية فيميل فيه المتكلم إلى شخوص النص على سبيل المثال، إلى عدم التصريح بالمعنى، فيلجأ إلى تحقيقه كناية أو استعارة أو رمزا وهذا من صلب التداولية، التي جاءت بما يسمى، الفعل غير المباشر، وها انتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي.

إن التواصل الأدبي يحتم على القارئ ملء فراغات النص، الوصول إلى المعاني الخفية.

ظهرت إذن نتائج التداولية على دراسة النصوص الأدبية، لأن الكلام في الحياة الواقعية يهدف إلى التأثير لتحقيق غايات فالأمر نفسه في العمل الإبداعي، فالمؤلف يسعى من خلال اختياره لمفرداته، وشخوصه وأمكنته وأزمنته ليؤثر في المتلقي وليرسل رسالته التي يفهمها المرسل إليه، ولعل نظرة أيزر للقارئ الضمني تؤكد ذلك، حيث يهتم بأثر النص الأدبي على القارئ، وأن هدف المؤلف من الرسالة الأدبية هو التواصل مع القارئ والتأثير فيه، وما مدى استجابته لهذا العمل الإبداعي، فوظيفة اللغة لا تقتصر فقط على نقل خبر أو وصف واقعة أو إيصال مرسل معلومة إلى مرسل إليه بواسطة الأصوات فهناك أيضا أفعال تنجز وتتحقق من خلال التلفظ، والنص الأدبي لن يتحقق ولن يكون له كيان إلا فقراءة القارئ له وتأثره به فيبرز دوره ويصبح عنصرا فعالا «في تناول النص أو في عملية التحليل والتأويل والإدراك والسرد والقص»[49].

فهو الذي يركز على سياقات النص المختلفة والمتعددة التي تحيل على إنتاجيته واستقباله وهو الذي وجب أن يمتلك خبرة افتراضية كالخبرة اللسانية والمعجمية والفكرية والتواصلية والمعرفية والتاريخية، هذا ما تسميه التداولية وبالافتراض المسبق، ويفك القارئ كذلك مجموعة من الحالات فيؤولها ويفهمها، كالإحالة الشخصية والإحالة المرجعية، والإحالة التاريخية والمكانية والتي تقدم لها التداولية باسم الإشاريات الشخصية والمكانية والزمانية.

النص الأدبي فضاء تخييلي تعيش داخله شخوص وتتصارع فيه أفكار، وتنسجم في خضمه أرواح غير واقعية، وتدور في فلكه حوارات فتحيا الشخصية داخله حياة حقيقية يتأملها القارئ فيعرف ما تطلبه، فيميز أفعال الكلام المختلفة، وتميز

كذلك الشخوص فيما بينها، هذه الأفعال الكلامية، فتبرز الإخباريات والإلزاميات والإعلانيات والتعبيريات والتوجيهيات.

النص الأدبي نص تواصلي يجمع شخوص الرواية والسرد، ويجتمع المبدع مع متلقيه، يمارس فعل التأثير والتأثر، يغير المجتمع من خلال تغييره للقارئ إنه فعل تداولي بامتياز وبهذا تستطيع التداولية أن تمتد من الخطاب الواقعي اليومي إلى الخطاب الإبداعي الفني الأدبي.

خاتمة:

من خلال ما تم التطرق إليه، توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:

- النص كيان دلالي ولغوي هدفه الإيصال والتواصل.
- تناولت عديد الدراسات مفهوم النص، ونظرت إليه وفق منهجها وتوجهها.
- تناولت جملة من المناهج و المقاربات ،منها اللسانية، الأسلوبية، النصية، التداولية، النص الأدبي.

ومن خلال هذه النتائج فإن أهم توصيات البحث هي حتمية الاعتناء بالنص لأنه نواة المعاني والدلالات ومركز التواصل الإنساني.

الإحالات والهوامش:

[1]- ابن منظور، 1979، لسان العرب ،مكتبة دار المعارف، ب ط،القاهرة، مصر، ج 5، مادة (ق،ر،أ) ص219.

[2]- حسن محمد حمادة ، 1997، تداخل النصوص في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط1، القاهرة،ص 19.

[3]- أدونيس،1985، سياسة الشعر:دراسات في الشعرية العربية المعاصرة، دار الآداب، ط1 ، بيروت، لبنان، ص 57.

[4]- محمد حمود، 1993،تدريس الأدب: إستراتيجية القراءة، والإقراء، منشورات ديداكتيكا، ط 1،الدار البيضاء، المغرب، ، ص 18.

[5]- محمد بن أحمد جهلان ، 2008،فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، صفحات للدراسات والنشر، ط1،دمشق، سوريا، ص 49.

[6]- م،ن،ص، ن.

[7]- عبد المالك مرتاض، 2007، نظرية النص الأدبي، دار هومة، ط1،الجزائر، ص 107 .

[8]- عدنان قاسم ،2001، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، الدار العربية للنشر والتوزيع ،ط1، مصر ، ص 168 .

[9]- فردينان دوسوسير ،د ت ، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، ط1،تونس، ص 27.، وانظر أحمد مومن ،2005، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2،الجزائر، ص 122.

[10]- الفيروزآبادي، 1979، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، د ط، بيروت، لبنان، ج1، مادة نصص، ص 858.

[11]- الرازي، 1999، مختار الصحاح، دار التراث العربي، ط1،لبنان ، ج1، مادة (نص) ، ص 381، 382.

[12]- ابن منظور ، مرجع سبق ذكره، ص 97،98.

[13]- خليل أحمد خليل ، 1995، معجم المصطلحات العربية، دار الفكر اللبناني، ط1،بيروت لبنان، ص 136، 137.

[14]- أحمد الحذيري، من النص إلى الجنس الأدبي، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ،ع/101،100، 1988،ص 41.

[15]- رولان بارث ، نظرية النص ترجمة محمد خير البقاعي، مجلة العرب، الفكر العالمي ،ع/3، 1988، ص52.

[16] -T.Todorov, 1987, la nation de la literature et autre essais, edition du de seuil,paris,p12.

[17]- رينيه ويلك وأوستن وارين، 1981،نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت لبنان، ص49.

[18]- مصطفى الكيلاني ، وجود النص الأدبي ،نص الموجود، مجلة الفكر العربي المعاصر ع 101/100، 1988، ص18.

[19]- صلاح فضل، 1995، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، القاهرة مصر، ص 295.

[20]- مصطفى الكيلاني : مرجع سبق ذكره، ص 20.

[21]- الازهر الزناد، 1993، نسيج النص فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، ط1،بيروت، لبنان، ص12.

[22] grand dictionnaire encyclopédique , la rousse , t10 littéraire , paris , 1984 , 810170.

[23]- عبد المالك مرتاض ، د ت، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي"، لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، ص 55.

[24]- عبد السلام المسدي، 1995،قضية البنيوية، دراسة ونماذج، دار الجنوب للنشر، د ط، تونس، ص51.

[25]- المرجع نفسه ص 52.

[26]- المرجع نفسه ، ص 53.

[27]- منذر العياشي،2009، العلاماتية وعلم النص،مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب،ص119.

[28]- م،ن: ص،ن.

[29]- أمبرتو إيكو، 1996، القارئ في الحكاية، التعاضد، التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، ص 61.

[30]- فولفغانغ أيزر، د ت، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب، ترجمة: حميد لحمداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل،د ط، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ص 12.

[31]- المرجع نفسه، ص 12.

[32]- روبرت هولاب، 1999، نظرية التلقي، ترجمة: خالد التوزاني والجلالي الكدية، منشورات علامات ، ط1، المغرب، ص 86.

[33]- تيري إيجلتون، 1997 ،مقدمة في نظرية الأدب، ترجمة أحمد حسان، نوارة للترجمة والنشر، ط2، القاهرة، ص 67.

[34]- علي آيت أوشان، 2000، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1،الدار البيضاء، ص 102

[35]- عبد القادر شرشار، نظرية القراءة وتلقي النص الأدبي، مجلة الموقف، اتحاد الكتاب العرب، ع 367، 2001، ص65.

[36]- إمان سلون، 1996، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة سعيد الغانمي، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط1، عمان، ص 159.

[37]- فولفغانغ أيزر، مرجع سبق ذكره، ص 26.

[38]- المرجع نفسه، ص 26.

[39]- المرجع نفسه، ص 22.

[40] Michel Riffatere ,1972, essais de stylistique structurales, traduction de daniel de les flammation, Editeur, Paris, p 46.

[41]- أمبرتو إيكو: القارئ في الحكاية، مرجع سابق، ص 64.

[42]- المرجع نفسه، ص 69.

[43]- فولفغانغ إيزر، مرجع سبق ذكره، ص 30.

[44]- المرجع نفسه، ص 34.

[45]- فيرناند هالين وآخرون، 1998، بحوث في القراءة والتلقي، ترجمة محمد خير البقاعي، مركز الإنماء، الحضاري، ط2،بيروت ،ص 40.

[46]- المرجع نفسه، ص 39.

[47]- المرجع نفسه، ص 39.

[48]- ينظر: علاء الدين هلال، مفهوم الاستراتيجية في العلوم الاجتماعية، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، عدد 4، أفريل، 1982، القاهرة، ص 75.

[49]- جميل حمداوي، 2015، نظريات القراءة في النقد الأدبي، المكتبة الشاملة الذهبية، ط1، ص 06.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور، 1979، لسان العرب ،مكتبة دار المعارف، ب ط،القاهرة، مصر.
2. حسن محمد حمادة ، 1997، تداخل النصوص في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط1، القاهرة.
3. أدونيس،1985، سياسة الشعر:دراسات في الشعرية العربية المعاصرة، دار الآداب، ط1 ، بيروت، لبنان.
4. محمد حمود، 1993،تدريس الأدب: إستراتيجية القراءة، والإقراء، منشورات ديداكتيكا، ط 1،الدار البيضاء، المغرب.
5. محمد بن أحمد جهلان ، 2008،فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، صفحات للدراسات والنشر، ط1،دمشق، سوريا.
6. عبد المالك مرتاض، 2007، نظرية النص الأدبي، دار هومة، ط1،الجزائر.
7. عدنان قاسم ،2001، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، الدار العربية للنشر والتوزيع ،ط1، مصر.
8. فردينان دوسوسير ،د ت ، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، ط1،تونس.
9. أحمد مومن ،2005، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2،الجزائر.
10. الفيروزآبادي، 1979، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، د ط، بيروت، لبنان.
11. الرازي، 1999، مختار الصحاح، دار التراث العربي، ط1،لبنان.
12. خليل أحمد خليل ، 1995، معجم المصطلحات العربية، دار الفكر اللبناني، ط1،بيروت لبنان.
13. أحمد الحذيري، من النص إلى الجنس الأدبي، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ،ع/101،100، 1988.
14. رولان بارث ، نظرية النص ترجمة محمد خير البقاعي، مجلة العرب، الفكر العالمي ،ع/3، 1988.
15. T.Todorov, 1987, la nation de la literature et autre essais, edition du de seuil,paris.
16. رينيه ويلك وأوستن وارين، 1981،نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت لبنان.
17. مصطفى الكيلاني ، وجود النص الأدبي ،نص الموجود، مجلة الفكر العربي المعاصر ع 101/100، 1988.
18. صلاح فضل، 1995، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، القاهرة مصر.
19. الازهر الزناد، 1993، نسيج النص فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، ط1،بيروت، لبنان.
20. grand dictionnaire encyclopédique , la rousse , t10 littéraire , paris , 1984.
21. عبد المالك مرتاض ، د ت، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي"، لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر.
22. عبد السلام المسدي، 1995،قضية البنيوية، دراسة ونماذج، دار الجنوب للنشر، د ط، تونس.

23. منذر العياشي،2009، العلاماتية وعلم النص،مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب.
24. أمبرتو إيكو، 1996، القارئ في الحكاية، التعاضد، التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب.
25. فولفغانغ أيزر، د ت، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب، ترجمة: حميد لحمداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل،د ط، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب.
26. روبرت هولاب، 1999، نظرية التلقي، ترجمة: خالد التوزاني والجلالي الكدية، منشورات علامات ، ط1، المغرب.
27. تيري إيجلتون، 1997 ،مقدمة في نظرية الأدب، ترجمة أحمد حسان، نوارة للترجمة والنشر، ط2، القاهرة.
28. علي آيت أوشان، 2000، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1،الدار البيضاء .
29. عبد القادر شرشار، نظرية القراءة وتلقي النص الأدبي، مجلة الموقف، اتحاد الكتاب العرب، ع 367، 2001.
30. إمان سلون، 1996، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة سعيد الغانمي، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط1، عمان.
31. Michel Riffatere ,1972, essais de stylistique structurales, traduction de daniel de les flammation, Editeur, Paris,.
32. فيرناند هالين وآخرون، 1998، بحوث في القراءة والتلقي، ترجمة محمد خير البقاعي، مركز الإنماء، الحضاري، ط2،بيروت.
33. علاء الدين هلال، مفهوم الاستراتيجية في العلوم الاجتماعية، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، عدد 4، أفريل، 1982، القاهرة.
34. جميل حمداوي، 2015، نظريات القراءة في النقد الأدبي، المكتبة الشاملة الذهبية.